

توسع العرب وانتشار الاسلام

رؤية جغرافية تاريخية

للدكتور سليمان حزين

(١)

الجزيرة العربية : موطن الانتشار

استيناح بعض ما غمض من العوامل ذات الأثر في توسع هذا الشعب العربي من شبه الجزيرة ، وإذاعة ثقافته ودينه بين أهل الشرق وأهل الغرب

هذه الناحية الجديدة من البحث هي ما يعرف باسم "الجغرافيا التاريخية" وهي الدراسة التي تجمع بين أثر كل من البيئة والإنسان في تحليل الحوادث التاريخية ، أو تفهمها على الأقل . وهذا الجمع بين البيئة والإنسان في بلاد العرب أمر لابد منه إذا أردنا أن نتفهم طبيعة العربي والظروف التي نشأ فيها ، وتأثيرها ، في حياته وفكره ومدنيته وثقافته ، وكذلك في اتصالاته بالعالم

يعتبر توسع العرب وانتشار الاسلام من شبه جزيرة العرب شرقا وغربا ، برا وبحرا ، من أهم الحوادث والظواهرات في تاريخ البشر بل إن ذلك التوسع يمثل نقطة تحول خطيرة ، كان لها أثرها الدائم في تاريخ الإنسانية جمعاء . وقد انصببت معظم الدراسات في الماضي ، على تتبع مراحل توسع العرب منذ بداية نهضتهم في أواخر العصر الجاهلي ، ودراسة تاريخه السياسي . ولكننا سنحاول في هذه الأحاديث أن نعالج الموضوع من ناحية قد تبدو غريبة في أول الأمر ، ولكننا نرجو ألا تخلو من طرافة ، وأن نلقى ضوئا جديدا يساعدنا على

(*) ألقى في الجلسة الثانية من جلسات المؤتمر المنعقدة يوم الإثنين ٢٦ من رجب سنة ١٤١١هـ الموافق

١١ ممن فبراير سنة ١٩٩١م .

الخارجى ونظرته نحو غيره من الشعوب المجاورة والبعيدة . والفكرة الشائعة عن أن العرب قوم رحل ، موطنهم الصحراء وبيئتهم الرمال المنتشرة ، والنخيل المتجمعة فى واحات مبعثرة وسط الصحراء ، وقوام حياتهم ذلك الكلا المتناثر ، وترعاه الإبل وبعض الأغنام ، تنتقل القبيلة أو العشيرة وراءها من مكان إلى مكان ، هذه الفكرة الشائعة إنما تقوم على فهم جزئى للبيئة العربية . ولو أن العرب كانوا جميعاً أولئك القوم الرحل لما قامت لهم تلك المدنية ، ولما استطاعوا أن يساهموا فى تراث الثقافة البشرية والفكر البشرى بما ساهموا به قبل الإسلام وي بعده .

لكى نتفهم تاريخ العرب وانتشار الإسلام من بلادهم تفهما صحيحا ، ينبغى إذن أن نبدأ بتفهم البيئة العربية من حيث مقوماتها العامة ، من طبيعة السطح والمناخ والنبات والحيوان ، ثم من حيث ظروفها الإقليمية التى ميزت إقليما عن إقليم ، والتى أعطت لكل جزء من

الجزيرة العربية طابعه الخاص ، وأعدته لأن يقيم بدورة المعين فى توسع العرب وانتشار الاسلام .

وتعتبر بلاد العرب إحدى أشباه الجزر الكبرى الثلاث ، التى تمتد من قارة آسيا نحو الجنوب . وتتكون فى مجموعها من صخور بلورية قديمة ، تقع فى القسم الغربى فى محاذاة البحر الأحمر ، وصخور جيرية ورملية تقع فى القسم الشرقى ، ومن السهول والحيضان الطينية على جوانب النهر . وفى قاع بعض الوديان التى تنصرف إلى البحار أو تنتهى فى داخلية الصحراء . ولكننا نلاحظ على وجه العموم، أن الرمال المنثورة والتى تنقلها الرياح لا تكسو أكثر من نسبة محدودة جداً من سطح الأرض فى شبه الجزيرة تقدر بأقل من سدس المساحة الكلية ، أما بقية السطح فصخرى صلب ، أو طفلى تماسكت فيه الرمال بالتربة الطينية ، ونمت على سطحه الأعشاب أو النباتات المزروعة إذا توافر الماء .

وأما عن المناخ ، فالفكرة الشائعة أن بلاد العرب كلها ذات مناخ صحراوي حار جاف ولكن الواقع أن القسم الشمالي منها يقع تحت تأثير مناخ البحر المتوسط ذي الأمطار الشتوية ، ويتساقط الثلج على جباله العالية في لبنان وحدود الجزيرة الشمالية والشرقية ، ويعتبر بعض تلك الجبال العالية معتدل المناخ ، حتى في أشهر الصيف ، أما جنوب بلاد العرب فمناخه شبه موسمي ، وأمطاره صيفية ، منتظمة في بلاد اليمن حيث يبلغ المطر في صنعاء حوالي ٤٠ سنتيمترا في العام ، وأقل انتظاما في حضر موت وعمان ، وهكذا نجد أن المناخ الصحراوي الحار بالمعنى الصحيح، والذي يمتاز بالأمطار الشحيحة الطارئة غير المضمونة ، إنما يتمثل في الأجزاء الداخلية والوسطى من بلاد العرب ، أي في الحجاز ونجد وما إليهما من صحراء النفود شمالا والربع الخالي جنوبا .

وقد كان للفرق بين موسم المطر في

شمال شبه الجزيرة وجنوبها ، أثره الظاهر في الحياة النباتية والزراعية . فمع أن الشمال والجنوب يمتازان بثروتها النباتية ، بالنسبة للوسط المقفر إلا من الواحات وموطن الكلا ، فإن النباتات في الشمال معظمها شتوي كالقمح والشعير، والقليل منها صيفي ومقصور على الواحات أو مجارى الماء . أما في الجنوب فالنباتات معظمها صيفي ينبت وينمو في موسم المطر كالذرة وبعض حبوب المناطق الحارة شبه الموسمية ، ولا تزرع النباتات الشتوية والشمالية إلا على القمم العالية حيث تسمح الحرارة بنمو نباتات المناطق المعتدلة والباردة أو في الواحات حيث يتوافر الري من العيون والآبار .

كل هذا من حيث التوزيع العام لظواهر البيئة الجغرافية العامة في بلاد العرب .

فأما من حيث الميزات الإقليمية ، فإن دراستها لا تخلو من فائدة لمن يريد تفهم مدنية العرب ، والدور أو الأدوار التي قاموا بها في فترات مختلفة من

التاريخ ، ولن يريد بصفة خاصة تفهم ظروف انتشارهم من الشمال حينا ، ومن الجنوب حينا آخر . ويمكن بصفة عامة ، أن نقسم الجزيرة العربية من حيث الأقاليم الجغرافية الأساسية على النحو الآتى ، مبتدئين بالجنوب :

١ - عُمان : منطقة جبلية ، يزيد بعض مرتفعاتها على ٢٥٠٠ مترا فوق سطح البحر أمطارها متوسطة ، وثروتها النباتية لا بأس بها ، لاسيما على القمم ومنحدرات الجبال شرقا وغربا . وقد شاركت فى الحضارة القديمة للخليج العربى وكان لأهلها اتصالهم التجارى والثقافى بالبحر مع إيران والهند من ناحية ، وشرق أفريقية وزنجبار من ناحية ثانية ، ولا تزال الصلة مكنة بينها وبين هذه الأخيرة ، وكان للعمانيين الفضل فى نشر الثقافة العربية الإسلامية فى شرق أفريقية كما سنرى فى حديث قادم .

٢ - حضر موت والسواحل الجنوبية : وهى منطقة أقل ارتفاعا ، وإن كان سطح الهضبة يصل فى بعض الجهات إلى أكثر من ١٥٠٠ متر . أمطارها أقل فى الكمية والانتظام ولكن بداخلها وادى حضر موت وروافده التى تنصرف إليه بمياه الأمطار، التى تجرى فوق السطح ، ثم تغوص تحت التربة حتى تعود إلى الظهور فى جانب من وادى حضر موت الأوسط ، لتغوص من جديد فى القسم الأدنى من الوادى وتوجد بهذا الوادى وبعض روافده، لا سيما وادى دوعان ، واحات متلاحقة من النخيل ، كما تزرع الأذرة وبعض الحبوب والمحاصيل الأخرى . وقد كانت لوادى حضر موت حضارته القديمة فى عهد سبأ وحمير ، كما اشتهر قديما بمحاصيل التوابل والبخور ، أما فى العهد الإسلامى فقد قام الحضارمة بدور هام فى نشر الثقافة العربية الإسلامية إلى

جنوب شرقى آسيا وجزر الملايو
وإندونيسيا ، بحيث يصدق فيهم
بحق أن يسموا « فينيقيى البحار
الجنوبية » .

٣- اليمن : وهى هضبة عالية ، يصل
بعض قممها إلى أكثر من ٣٥٠٠
متر ، مكونة فى الأصل من صخور
بلورية قديمة تعلوها صخور أخرى
بركانية التكوين . وهى فى ذلك
تشبه بلاد الحبشة غاية الشبه .
ونظرا لوفرة الأمطار والرطوبة فى
الصيف على الأقل ، فإن الصخور
البركانية تتفتت وتكون تربة خصبة .
تشبه تلك التى توجد فى الحبشة ،
والتي تجلب أمطار النيل ومياهه
بعضها إلى بلاد مصر . ولهذا
النوع من التربة خاصية الاحتفاظ
بالرطوبة من فصل إلى آخر .
ولذلك فإن بعض النباتات الشتوية
ينمو على مرتفعات اليمن ، كما
تنمو النباتات الصيفية . وقد كانت
بلاد اليمن موطن الحضارات
المعينية والسبئية والحميرية التى

ترعرت هناك فى الألف سنة
السابقة لميلاد المسيح عليه السلام ،
والخمسمائة سنة اللاحقة وهى
حضارات مستقرة قامت على
أساس الزراعة ثم اتصلت تجارتها
وثقافتها بالعالم الخارجى ، لاسيما
شرقى أفريقية من ناحية . وشمالى
بلاد العرب عن طريق الحجاز من
ناحية أخرى . وقد سماها كتاب
الرومان فى القديم «بلاد العرب
السعيدة» ونظراً لوفرة الماء
والخضرة واستقرار السكان هناك .
ولا تزال بلاد اليمن متمتعة بوفرة
المحاصيل والحياة الزراعية
المستقرة حتى الآن ، ولها مستقبل
عظيم من هذه الناحية .

٤- عسير : منطقة جبلية أخرى ، يعادل
بعض قممها جبال اليمن العالية ،
ولكنها مكونة من الصخور البلورية
عارية من الصخور النارية ، ولذلك
فإن تربتها فقيرة وأمطارها أقل
كثيرا من اليمن . ولذا فإنها لم تزد
فى تاريخها عن أن تكون طريقاً

بين اليمن من جهة ، وبين الحجاز
وشمال الجزيرة من جهة أخرى .
ولو أن بعض واحاتها في الشرق
والجنوب كانت لها قيمتها الفريدة
في التاريخ ، لا سيما واحة نجران،
كما يقال إن بعض جبالها ربما
كان غنيا بخامات الحديد التي لما
تكتشف بعد .

٥ - الحجاز : منطقة متوسطة الارتفاع
(١٠٠٠ - ١٢٠٠ متر) . تحجز ما
بين البحر الأحمر وداخلية الجزيرة
(نجد) ، تربتها فقيرة (فيما عدا
الواحات كالطائف وخبير) .
وأماطارها شحيحة غير منتظمة ،
ولا مضمونة السقوط . ترجع
أهميتها إلى موقعها الجغرافي ، إذ
يسير على طولها طريق رحلة
الشتاء والصيف بين اليمن والشام
من جهة ، كما تخرقها الطرق
الآتية من نجد إلى البحر أو إلى
طريق رحلة الشتاء والصيف من
جهة أخرى . وقد ازدادت أهمية

الحجاز في العهد الإسلامي بسبب
وجود مكة والمدينة فيه . وفي
شمالى الحجاز توجد جبال مدين .
التي يبلغ بعض قممها حوالى ألفى
متر . وتوجد بها بعض المراعى .

٦ - نجد : هضبة داخلية ، بعض
صخورها جبرى ، وبعضها
رملى . وبها عدد من الواحات
والآبار . تقوم حياة أهلها أساساً
على الرعى ، وتتجمع قبائلها في
أشهر القيظ حول الواحات التي
أحدثها الرياض . ويقع إلى شرقها
سهل الأحساء الذى ينحدر
تدرجياً إلى الخليج العربى ، حيث
مصائد اللؤلؤ وبعض المرافئ
القديمة والحديثة . وتعتبر هضبة
نجد فى الحقيقة قلب الجزيرة ، إذ
تتمثل فيها الحياة العربية البدوية
الخالصة أكثر مما تتمثل فى غيرها
من بلاد الجزيرة . حيث الاتصال
بالعالم الخارجى أيسر وأبعد أثراً
فى حياة السكان .

وقد كان اتصال نجد بالعالم الخارجى ، إما شرقا عن طريق الأحساء وإما غربا عن طريق الحجاز . أما فى الجنوب والشمال فهناك صحراء الربع الخالى وصحراء النفود . وقد كان كذلك لا صحراء الربع الخالى عقبة فى سبيل الاتصال .

٧ - الهلال الخصيب (وهو آخر المناطق) : ويمثل منطقة كانت لها أهميتها الكبرى فى تاريخ العرب ، وتمتد على شكل هلال مفتوح نحو الجنوب ، وتتكون من شطرين كبيرين هما الشام والعراق . تقع بينهما بادية الشام ، وهى أقرب إلى السهول ذات المراعى الفقيرة نسبيا منها إلى الصحراء المجربة بالمعنى الصحيح .

أ - فأما الجانب الشامى من الهلال الخصيب فيشمل الأردن وفلسطين فى الجنوب وسورية ولبنان فى الشمال . والأوليان أقل نضرة وعمرا من

الثانيتين . كما أن ساحلهما رملى يكاد يخلو من المرافئ الطبيعية ، ويصعب إنشاء الموانئ فيه . أما سورية ولبنان فأرضها أكثر ارتفاعا ، لا سيما لبنان حيث تصل إحدى القمم إلى ما يقارب ٣٠٠٠ متر وأكثر وحيث الأمطار الشتوية والنباتات الشمالية . فضلا عن أن الساحل اشتهر منذ أيام الفنيقيين بموانئه ومرافئه الطبيعية ولقد كان هذا الساحل فى الحقيقة أحد مداخل الشرق الأدنى الهامة فى اتصاله بعالم البحر المتوسط وما وراءه .

ب - وأما الجانب العراقى فيمتد من سهل الجزيرة وحدود كردستان فى الشمال ، إلى سهول العراق الوسطى والأغوار وشط العرب فى الجنوب . وهذه مناطق سهلية فى جملتها ، تحدها الجبال من الشرق ، ولكنها تتصل اتصالا وثيقا

ببادية الشام وداخلية الجزيرة
فى الغرب . والأمطار فى هذا
الجانب بجملته أقل منها فى
الجانب الشامى من الهلال ،
ولكن أنهار دجلة والفرات
وقارون وروافدها تنصرف بالماء
من هضبة كردستان وإيران
حيث تذوب الثلوج فى الربيع .
وقد نشأت على سهول العراق
وعلى جوانب أنهاره حضارات
عريقة، كان لها شأنها فى
العصور القديمة ومنها سومر
وأكاد وبابل وأشور (بخلاف
أراضى الأكراد وهضابهم فى
أقصى الشمال) ، ولكن تلك
الحضارات العراقية القديمة لم
تعرف الوحدة فيما بينها كما
عرفتها أرض الصعيد ودلتا
النيل فى مصر ، فضلا عن أن
أرض العراق قد تداولت عليها
القبائل والغزاة من الهضاب

الشرقية وداخلية آسيا من جهة،
من داخلية الأراضى العربية
التي نزحت قبائلها إلى أرض
السود من جهة أخرى .

من هذه الأقسام والأقاليم
جميعا تتكون البيئة العربية ،
أو بعبارة أصح، بيئة شبة
الجزيرة التي انتشر منها
العرب. وهى كما نرى أقاليم
مختلفة فى طبيعتها قد كان لكل
منها دوره الخاص فى تاريخ
العرب وحركة انتشارهم ،
ولكنها على الرغم مما بينها من
تباين ، قد أتم بعضها بعضا
فى هذا الوطن الأسمى ، الذى
انتشر منه الإسلام إلى بقية
العالم العربى والإسلامى فى
خارج الجزيرة ، لاسيما
مصر وشمالى أفريقية ، مما
سنحاول أن نعرض له الآن .

من هم العرب

تحدثنا فيما سبق عن البيئة التي انتشرت منها العرب ، وشرحنا كيف أن تلك البيئة متنوعة في أقاليمها ، وسميزاتها الجغرافية ، وكيف أن ذلك التنوع كان له أثره الواضح في الصفات التي اتخذها توسع العرب من تلك الأقاليم ، بالبر حينا والبحر حينا آخر ، كما شرحنا كيف أنه على الرغم من اختلاف تلك الأقاليم بعضها عن بعض ، فإنها تؤلف فيما بينها تلك البيئة العامة التي نسميها بالبيئة العربية .

وكذلك الشأن في سلالات العرب ، فهم على اختلافهم في الشمال والجنوب ، وعلى تنوع مميزاتهم الاجتماعية في البادية والحضر ، وفي الداخل والجهات الساحلية ، فإنهم يكونون فيما بينهم شعبا واحدا ، له مميزات العامة المشتركة ، وثقافته الموحدة في اللغة والدين والاتجاه الفكري العام . ولذلك فإننا إذا حاولنا اليوم أن

نتتبع أصل العرب ، انتهى بنا البحث إلى أن ذلك الأصل ليس ضيقا ولا محدودا . وإنما هو متشعب غير محدود ، وإلى أن العربي يجمع في تكوينه بين مميزات أهل آسيا الغربية ، وأهل البحر المتوسط ، وبعض أهل أفريقية الشرقية ، ويرث عن هذه العناصر جميعا ، أو يشترك معها على الأقل ، في كثير من المزايا والملكات والمؤهلات التي تضيف إلى تراث العرب السلالي ، وإن انتهى بناء البحث إلى هذا كله ، لن يتنافى بحال مع ما للعرب من مساحة مشتركة ، تجمع بينهم جميعا كشعب واحد مميز عن غيره من الشعوب ، تربط بين عناصره تلك البيئة العربية ، وذلك الموقع الجغرافي الفريد ، الذي تحتله جزيرة العرب في وسط العالم القديم .

هناك نظرية تجعل من الشرق الأدنى الموطن الأصلي للإنسان ، أو بعبارة أصح المنطقة التي انتشرت منها

السلالات البشرية الكبرى التي تعمّر العالم في الوقت الحاضر ، وتقوم تلك النظرية على أساسين . أولهما : الموقع الجغرافي ، إذ يجمع الشرق الأدنى بين قارات العالم القديم الكبرى (آسيا وأوروبا وأفريقية) ، كما يجمع بين بحار الشمال أي البحر المتوسط وما يليه شمالاً وغرباً ، وبحار الجنوب أي البحر الأحمر والخليج العربي وما يليهما جنوباً وشرقاً .

وثانيهما : أن سلالات البشر الكبرى من عناصر آسيا الداخلية (الأتراك البيض والمغول الصفراء) ، ومن العناصر البيضاء (أي الشرق في شمال أوروبا والسمير في جنوبها وفي شمال أفريقية) ، ثم العناصر السوداء (في أفريقية وجنوب الهند وجنود شرق آسيا) هذه العناصر كلها تتقارب جميعاً ، أو تتقارب بعض أطرافها ، في الشرق الأدنى ، الذي يبدو أنها انتشرت منه أو من جواره ، نحو الشرق في حالة سكان آسيا الداخلية ، ونحو الغرب والشمال في حالة العناصر البيضاء ،

ونحو الجنوب الغربي والجنوب الشرقي في حالة الزوج ومن إليهم من ذوى البشرة السوداء .

وإذا صحت هذه النظرية ، وهو ما يرجحه أغلب الباحثين ، لا سيما فيما يختص بالعناصر البيضاء والسوداء ، وإن لم يسلموا به جميعاً فيما يتصل بالمغول ، فإنه يجب أن ننتظر أن يجمع أهل جنوب غرب آسيا في دمائهم وتكوينهم السلالي مزيجاً من المميزات والصفات ، وأن يكون هناك شئ من الاختلاف بين أهل الجزيرة العربية في مختلف جهاتها ، لا سيما الشمال والجنوب ، وهو ما انتهت إليه الأبحاث الحديثة بالفعل .

تغلب على العرب في جملتهم الصفات التي يعرفها علماء الأنثروبولوجيا (أو علم السلالات البشرية) بالصفات القوقازية ، والتي يطلق عليها أحياناً بشئ من التسامح اسم الصفات السامية ، وإن كان من الأفضل أن يقتصر استعمال هذا اللفظ الأخير على الناحية الثقافية عامة واللغوية

خاصة ، وألا يكون له مدلول سلالى معين، وأهم تلك الصفات العربية ، البشرة السمراء أى القمحية اللون ، والقامة المعتدلة ، أى فوق المتوسطة ، والرأس المستطيل أو المتوسط الاستدارة، وملامح الوجه القسيمة فيما عدا استطالة الأنف وبروزه فى بعض الأحيان ، والشعر المجعد تجعيداً خفيفاً ، والحية المتوسطة الكثافة ، ولون الشعر الكستنائى ، والعيون العسلية الغامقة ، والأطراف المتناسبة مع القامة التى يغلب عليها أن تكون نحيلة ، لا سيما بين أهل البادية ، حيث يقل الغذاء ويكثر التنقل وتطول المسافات .

على أن هذه الصفات وإن كانت غالبية ، فإنها فى الحقيقة لا تتمثل على صورة واضحة خالصة ، إلا فى جهات محدودة من الجزيرة ، لا سيما فى الأجزاء الداخلية منها مثل نجد وبعض جهات الحجاز وبادية الشام . وربما كانت هذه الأخيرة الوطن الأصلى للعناصر التى عرفت فيما بعد بالساميين . وقد شبهها بعض الباحثين بالمهد يتكاثر فيه

البدو فى بعض الفترات ، حتى إذا ما ضاق هذا المهد بمن فيه ، انتشر أهله فى الأرض شرقاً وغرباً ، فاحتلوا أراضى العراق أو أراضى الشام وشمالى أفريقية فإذا ما خف الضغط وقل الناس فى البادية ، عاد سكانها إلى التكاثر البطئ مرة ثانية إلى أن تضيق البادية بهم ، فيضطروا إلى الانتشار فى الأرض من جديد ... وهكذا مما سنعود إليه عندما نبحث أسباب انتشار العرب من شمال الجزيرة .

كذلك من المهم أن نلاحظ من الناحية السلالية أننا كلما ابتعدنا عن قلب الجزيرة وعن البادية بالمعنى الصحيح ، وجدنا العرب أكثر اختلاطاً فى مظهرهم وفى مميزاتهم ففى العراق اختلط الأعراب ، ومن يعرفون بالساميين ، بعناصر أخرى انحدرت إلى سهول دجلة والفرات ، من هضبة إيران وأرمينيا ، لا سيما من هذه الأخيرة ، حيث يمتاز السكان فى الأصل باستدارة الرأس ، وانبطاح مؤخرة الجمجمة ، وارتفاع اليافوخ وأم الرأس ارتفاعاً ظاهراً ،

وانحدار الجبهة وتقهرها إلى أعلى ،
وشدة بروز الأنف وارتفاع قنطرتة وغلظ
أوداجه ، فضلا عن أن القامة متوسطة ،
وأن الجسد يميل إلى الامتلاء بعض
الشيء . وهذه الصفات بالطبع لا توجد
خالصة إلا فوق الهضبة نفسها ، أما في
بعض جهات العراق ، فإنها تتمثل مخففة
ومختلطة بالميزات الأعرايية المشار إليها
من قبل . ويظهر أن بعض عناصر
الهضبة هاجرت نحو الجنوب وأن أثرها
لم يقف عند العراق ، وإنما امتد مع
الخليج إلى عمان ، ومنها غربا إلى وادي
حضر موت . حيث تظهر بعض الميزات
الأرمينية بين سكان ذلك الوادي ، كما
سنرى بعد قليل .

كذلك تأثر سكان الشام ، لا سيما
جبال لبنان ، بالعناصر التي انحدرت من
هضبة الأناضول في الشمال . ويرجع
بعض تلك المؤثرات إلى أيام الحيثيين
الذين توسعوا في لبنان القديم ، وأثروا
في سكانه ، كما تجددت تلك المؤثرات في
أيام الأتراك الذين امتد تأثيرهم ، فشمّل
أجزاء مختلفة من سورية وفلسطين .

وتتمثل هذه المؤثرات الشمالية أيضا في
استدارة الرأس ، وانبطاح مؤخرة
الجمجمة انبطاحاً خفيفاً هذه المؤثرات
الشمالية وغزارة شعر الوجه ، إلى غير
ذلك من المميزات التي تظهر بين أهل
الأناضول .

فإذا ما انتقلنا إلى جنوب الجزيرة
العربية ، وجدنا الاختلاف أكثر وضوحاً
بين أهل ذلك القسم من الجزيرة ، وبين
أعراب البادية الشمالية على ما وصفناه
من قبل . وقد لاحظ علماء الانثروبولوجيا
منذ بدأوا يبحثون هذا الإقليم ، امتياز
سكانه في جملتهم (ما عدا شمالي
اليمن) باستدارة الرأس استدارة
يختلفون بها عن أهل الشمال عامة .

كما لاحظوا ظهور المؤثرات
الأرمينية ، التي أشرنا إليها ، في كل من
عمان ووادي حضر موت . ويظهر أن
وصل هذه المؤثرات الأخيرة ، أمر حديث
نسبياً ، فهي في وادي حضر موت تكاد
تقتصر على أهل الاستقرار في قاع
الوادي دون "القبايل" ، وهم البدو
المتنقلون في فيافي حضر موت الجافة ،

ويمثلون حالة متوسطة بين القوقازيين أو الساميين في الشمال وفي اليمن من جهة، وبين سكان شواطئ بحر العرب والبحار الهندية في الجنوب من جهة أخرى ، بل إن الصفات الهندية والتقارب بين بعض الحضارمة لا سيما على السواحل الجنوبية لبلاد العرب ، وبين بعض سكان الهند الغربية وهضبة الدكن أمر واضح ملموس . كذلك توجد مميزات زنجية خفيفة جدا تتمثل في برود الفم وفرطحة طرف الأنف الأدنى ، بين بعض سكان سواحل حضر موت ، وإن كان من الجائز أن هذه المؤثرات ترجع إلى تجارة الرق ونقل الزوج من شرقي أفريقية إلى جنوب بلاد العرب ، ثم اختلاطهم هناك بالسكان الأصليين .

فأما عن هضبة اليمن فإنها تمثل منطقة اختلطت فيها العناصر القوقازية من ذوى الرأس الأكثر استطالة ، بعناصر جنوب بلاد العرب من ذوى الرأس الأكثر استدارة .

ولهذا الاختلاط ، وكذلك لاتصال اليمن بالشمال ، وتبادل الهجرات

بينهما ، تاريخ طويل طريف ، ولكن يكفى أن نذكر الآن على وجه الاجمال ، أنه في القرون الأولى من الحضارة السبئية (أى فى بضعة القرون السابقة للعهد الميلادى) حدثت عدة هجرات متلاحقة من الشمال إلى الجنوب ولا يزال أثرها ظاهراً بين سكان منطقة حاشد فى شمال بلاد اليمن ، فى حين أنه فى أواخر الحضارة الحميرية (أى فى بضعة القرون السابقة للهجرة) ، انقلبت الآية ، وأتت أغلب الهجرات من اليمن نحو الشمال ، ولعل هذا هو السر فى أن كثيراً من القبائل العربية فى صدر الإسلام كانت تدعى لنفسها أصلاً يمنياً ، بل لعل هذا هو السر فى ظهور المثل القديم المعروف : « اليمن مهد العرب والعراق لحدهم » ، إشارة إلى أن العرب فى العهد الجاهلى وفجر الإسلام ، كانوا يخرجون من اليمن ويهاجرون شمالاً ، حتى يستقر بهم المقام فى أراضى السواد بالعراق .

الخلاصة من كل هذا أن العرب الذين انتشروا من شبة الجزيرة ،

واختلطوا فيما بعد بسكان بقية العالم العربى والإسلامى فى خارج الجزيرة ، كانوا يمثلون شعبا متنوع المميزات والملكات ، ولكن ليس معنى هذا التنوع أن العرب خليط من الأجناس ، وإنما معناه الصحيح أنهم سلالة متجانسة ذات تراث متنوع من الناحية الجسمية ولكنها موحدة التكوين من ناحية الفكر والثقافة. وقد أفاد التنوع من حيث أنه أعد العرب

وجعلهم صالحين من الناحية الجسمانية، للانتشار والحياة فى بيئات متباينة بعيدة عن الجزيرة والوطن الأصلي ، كما أفادت وحدة الفكر والثقافة فى أنها ربطت بين مختلف أجزاء العالم العربى والإسلامى فى داخل الجزيرة وخارجها ، بما فى ذلك مصر وشمال أفريقية من جهة ، وشرق أفريقية وبعض جزر جنوب شرقى آسيا من جهة أخرى .

العوامل الطبيعية والانتشار

سبق أن ذكرنا أن توسع العرب
أرهم من شبه الجزيرة في صدر
م يعتبر من أهم الحوادث التي
وجه التاريخ وحولت مجراه ، وقد
بعض الباحثين دراسة هذا
سبع ، من حيث أنه يمثل ظاهرة
ة لا بد وأن لها أسبابها ، وانتهى
ك بمعظم هؤلاء الباحثين ، إلى
اء بنسبة ذلك الانتشار إلى ظهور
م ، وإيمان العرب بأن لديهم رسالة
إبلاغها إلى العالم ، ويجب نشرها
راء الجزيرة ما استطاع المسلمون
ك سبباً ، بل إن بعض الباحثين
ن تحمس العرب المسلمين لدينهم
د ، وثقافتهم الجديدة ، الدافع
لتفانيهم في سبيل نشر الرسالة ،
أ رأى الكثيرون منهم ، أنه لولا
مة العربية لما انتشر الإسلام إلى
ء حدود شبه الجزيرة .

مثل هذا التعليل قد لا يخلو من
بعض الحقيقة ، ولكنه لا يمثل الحقيقة
كلها ، بل إنه لا يصل إلى الأسباب
الأساسية التي جعلت توسع العرب أمراً
ضرورياً ، كما أنه تعليل يتجاهل كثيراً
من العوامل الطبيعية والبشرية ، التي
مهدت لتوسع العرب قبل أن يظهر
الإسلام ، وقبل أن يسرى بين العرب
التحمس لهذا الدين الجديد وثقافته
الجديدة ، والحقيقة أن توسع العرب
وانتشارهم في العهد الإسلامي يتصل
بحركات الاضطراب التي كانت تختمر
في شبه الجزيرة أثناء العصر الجاهلي ،
والتي تمثلت في حروب العرب وأيامهم ،
وفي هجراتهم الداخلية في شبه
الجزيرة. قد أخذت تلك الحركات تزداد
قوة ، حتى إذا ما ظهر الإسلام وتوافرت
عوامل أخرى ، بعضها طبيعي وبعضها
بشرى ، انتشر العرب من شبه الجزيرة
بالبر والبحر ، على نحو ما سنرى .

ولم يكن توسع العرب والمسلمين ،
من شبه الجزيرة في صدر الإسلام وبعد
ذلك ، أول حركة ينتشر فيها البدو
والساميون من تلك البلاد ، بل إن هناك
حركات أخرى مماثلة ، انتشر فيها أولئك
الساميون ، فغزوا مصر القديمة حيناً أو
أحياناً ، واستقروا في أرض آشور حيناً ،
وتوسع بعضهم إلى بلاد الحبشة حيناً
آخر ، ومع ذلك فلم يصحب تلك الحركات
القديمة ظهور دين جديد أو ثقافة جديدة ،
وإنما هي تسببت عن عوامل أخرى
بعضها طبيعي ، كجفاف البلاد وضيق
مواردها بمن فيها ، وبعضها بشري
سياسي ، كضعف الأمم المجاورة ذات
الحضارة المستقرة مما أطمع البدو في
الغزو وأغراهم بالفتح ونشر السلطان .

وإذا نحن أردنا أن نتفهم توسع
العرب في العهد الإسلامي تفهماً
صحيحاً ، فإن من الواجب علينا أن
نبحث عن مثل تلك العوامل الكثيرة ، التي
أثرت في تلك الحركة ، ومهدت لها قبل
ظهور الإسلام . وتلك العوامل يمكن
تقسيمها قسمين :

(أ) عوامل طبيعية ترجع إلى البيئة
العربية .

(ب) عوامل بشرية تتصل بالظروف
السياسية والاقتصادية
والاجتماعية في شبه الجزيرة
نفسها ، وفي بعض البلدان
المجاورة ، وهي التي سنتناولها
بعد قليل .

وتتمثل العوامل الطبيعية في البيئة
العربية ذاتها ، التي تعتبر في جملتها
بيئة فقيرة محدودة الموارد قبل البترول .
ومن الطبيعي من وقت لآخر ، أن يتكاثر
الناس في مثل تلك البيئة بأكثر مما
تحتمل ، وأن يترتب على ذلك أحد أمرين:
الأول : أن توازن الطبيعة بين من تعولهم
من الناس وبين مواردها الخاصة ،
فيموت الزائدون عن الطاقة ، على نحو ما
يقضى به تنازع البقاء في بيئة فقيرة
قاسية ، ويكون فناء العناصر الضعيفة أو
إفناؤها ، إما عن طريق المجاعة والضعف
والمرض ، وإما عن طريق التشاحن
والتقاتل من أجل العيش ، تقاتلاً قد يتخذ

شكل الحرب حيناً ، وقد يتمثل في ظاهرات أخرى كوأد البنات ، والتخلص من العجزة والضعفاء حيناً آخر ، ومثل هذا ، لاسيما التقاتل والوأد ، حدث في شبه الجزيرة قبل الإسلام . أما الأمر الثانى الذى يترتب على تكاثر السكان بما لا تطيقه البيئة والموارد فأن يضطر الناس إلى الهجرة وطلب العيش ، من طريق التوسع بالبر أو البحر . وهذا أيضاً حدث فى أجزاء مختلفة من شبه الجزيرة قبل ظهور الإسلام .

كذلك يعتبر المناخ فى معظم شبه الجزيرة العربية من النوع الصحراوى الحار ، وإن كانت الأمطار متأثرة بنظام البحر المتوسط فى الشمال ، وبالنظام شبه الموسمى فى الجنوب . ومثل هذا المناخ يمتاز فى جملته بقلة المطر ، واشتداد الحرارة ، مما يقلل من التأثير الفعلى للأمطار الساقطة بسبب التبخر السريع ، وجفاف التربة واحتراق النباتات ، فضلاً عن أن هذه الأمطار الشحيحة من النوع " الطارىء " غير

المنتظم ، فليست لها مواعيد محددة أو مضمونة ، وكثير من الأجزاء الداخلية لشبه الجزيرة لا يتلقى شيئاً يذكر من المطر فى أعوام متلاحقة . وقد ترتب كذلك على قلة المطر أن أقل تغير فى متوسط الكمية الساقطة مهما كان بسيطاً فإنه يؤثر فى الحياة النباتية ، وبالتالي فى حياة الرعاة الذين يعتمدون على تربية الإبل والأغنام .

وأكثر من ذلك فقد اعترت بلاد العرب فى عصور التاريخ المعروفة «أزمات مناخية» تمثلت فى فترات جفاف شديد ، قل فيها المطر وازدادت ندرته ، وعدم انتظام سقوطه بل إن تاريخ مناخ الجزيرة العربية ، إنما هو فى الحقيقة سلسلة متلاحقة من فترات رخاء نسبى ، ازداد فيها المطر زيادة طفيفة ولكنها هامة ، فازداد الرخاء وتكاثر الناس ، وفترات شدة ، شح فيها المطر ، غافتقرت الحياة النباتية افتقاراً شديداً واضطر الناس إلى الاختيار بين المجاعة والهجرة .

وهناك أدلة كثيرة على أن مناخ بلاد العرب في الشمال والجنوب كان أكثر مطراً منه الآن في الفترة ما بين القرن الثاني عشر قبل الميلاد والقرن الثالث بعده ، وأن الأمطار إذ بدأت تشح إبتداء من القرن الثالث الميلادي وأخذت تقل تدريجياً حتى بداية القرن السادس الميلادي ، فبلغ الجفاف أشده ، وما زالت بلاد العرب تعاني فترة الجفاف حتى الآن.

وهذه الأدلة يرجع بعضها إلى دراسة الآثار القديمة ، ويستخلص بعضها الآخر من دراسة النصوص التي خلفها القدماء.

فأما عن الآثار ، فإن كثيراً من جهات بادية الشام تكثر بها آثار العمران القديم من مدائن لحقها الدمار والجفاف كتدمر وغيرها ، أو صهاريج قديمة بنيت ليتجمع فيها المطر الساقط في الشتاء ، على حين أن الأمطار في الوقت الحاضر لا تكفي للئها بالماء ، وقد امتلأ معظمها بالرمال . كذلك هناك آبار وعيون تعتمد على المياه الجوفية ، وقد تبين أن مستوى

هذه المياه في بعض الجهات ، كمنخفض الأزرق على حدود بادية الشام ، قد انخفض بمقدار مترين عنه في أيام الرومان . ولما كانت المياه الجوفية إنما ترجع في الأصل إلى مياه الأمطار الساقطة ، والتي تنتشر بها الأرض ، فإن انخفاض مستوى المياه الجوفية دليل قاطع على قلة الأمطار في الوقت الحاضر عنها في أيام الرومان .

كذلك الحال في الجنوب بلاد العرب ، لاسيما اليمن وحضرموت وسواحل ظفار حيث الأدلة الأثرية توضح تغير الأحوال المناخية وحلول الجفاف التدريجي . ففي اليمن مثلاً هناك مدائن كثيرة في بلاد الجوف ، ترجع إلى الحضارات المعينية والسبئية والحميرية ، وهي كلها في مناطق جافة في الوقت الحاضر . ولعل من الطريف أن نلاحظ عندما فتح الأحباش اليمن ، في أوائل القرن السادس الميلادي . فإنهم اضطروا إلى أن يتخذوا لأنفسهم قاعدة جديدة في صنعاء بدلاً من مأرب ، إذ كان الجفاف

قد أخذ يحل بمنطقة مأرب ، التى تقع على ارتفاع يقل عن صنعاء بنحو ألف متر ، كما أن صنعاء تقع إلى الغرب من مأرب وتتلقى أمطاراً أغزر منها ، كما تقل فيها الحرارة مما يضعف التبخر ويزيد من التأثير الفعلى للأمطار الساقطة ، والحق أن انتقال عاصمة اليمن ومقر الحكم فيه من مأرب إلى صنعاء لم يكن مجرد صدفة أو محض اتفاق ، وإنما كان راجعاً إلى سبب جغرافى مناخى ، ومنذ القرن السادس الميلادى حتى الآن ، استقر الملك والإدارة ، فى منطقة الجبال العالية فى القسم الغربى من اليمن ، ولم يعد العمران فى يوم ما إلى منطقة سد مأرب الشرقية المنخفضة نسبياً إلى مثل ما كان عليه أيام أهل سبأ وحمير .

ودليل آخر من أدلة الآثار التى يتضح منها تغير المناخ وميله نحو الجفاف ، تلك الصهاريج العظيمة التى خلفها السبئيون والحميريون فى اليمن ، وهى تقع فى العادة على ربوات مرتفعة ، بحيث تنلقى الماء النقى ، يستقى منه

الناس طوال العام . أما فى الوقت الحاضر فإن الصهاريج الحديثة تبنى كلها فى القيعان وعند السفوح . حتى ينحدر إليها من الماء ما يكفى للملئها ، ولا يحدث فى الوقت الحاضر أن تمتلئ صهاريج القدماء القائمة فوق الروابى إلا فى سنوات قليلة شاذة ، يشتد فيها المطر عن المعتاد ، وفى معظم السنين لا يتجمع فى تلك الصهاريج القديمة غير قليل من الماء لا يلبث أن يأسن .

ثم إن هناك آباراً كثيرة جافة فى الوقت الحاضر ، أو يكاد يفيض منها الماء ، وكانت فياضة فى العصور القديمة ، وحقولاً منتشرة هنا وهناك فى أراضي الجوف الداخلية كانت ترويهام مياه الأمطار ، إما بالمباشرة وإما بواسطة مشروعات الري التى قام بها القدماء من بناء السدود وتنظيم فيضان المياه المنحدرة من الجبال ، وأشهرها سد مأرب الذى يقال إن إنكساره فى القرن الخامس الميلادى ، كان سبباً فى خراب مأرب وهجرة القبائل من منطقتها إلى

جنوبى نجد ثم العراق والشام . والحقيقة أن انكسار مثل ذلك السد ، وإن كان قد استعجل خراب مأرب وضمحلها كمدينة وحاضرة (ولو أن بعض الأحباش حاول إصلاح السد وترميمه) فإن من غير المعقول أن يكون ذلك الحادث قد أدى إلى هجرة قبائل إقليم الجوف ، التى كان كثير منها يعيش على الرعى ، بل الذين بدأ بعضهم كقضاة وأزد يهجر اليمن الشرقى منذ القرن الثالث الميلادى ، أى منذ أن بدأ تغير أحوال المناخ وحلول الجفاف التدريجى ، وقبل أن ينكسر السد بقرنين أو نحو ذلك .

كل هذا عن الأدلة التى تستخلص من دراسة الآثار ، وهى فى الحقيقة أقوى الأدلة . ولكن هناك نوعاً آخر من الأدلة يستخلص مما خلفه القدماء من كتابات وقصص ، قد لا يكون كلها صحيحاً أو دقيقاً ، ولكنها تدل من قريب أو بعيد ، على أن الأمطار فى العصر الجاهلى ، لا سيما قبل القرن السادس الميلادى ، كانت أغزر وأكثر انتظاماً منها الآن ،

وعلى أن موارد الماء كانت خيراً مما آل إليه الأمر قبيل ظهور الإسلام وفى العصر الإسلامى .

من ذلك قصة كهل من أهل الحيرة (على الفرات) قابل خالد بن الوليد عندما فتح المدينة (٦٣٢م) وقال له إنه كان يشهد فى أيام صباه المرأة من نساء الحيرة ، تخرج لزيارة بعض أهلها فى الشام ، فلا تتزود بغير قليل من الزاد ، ولا تزال تتنقل بين الأماكن العامرة ذات المياه والأشجار المثمرة ، حتى تصل الجانب الآخر من البادية . ثم يكشف الكهل لخالد عن حسرته لما حل من جفاف وقحط وخراب . وتنسب القصة إلى الكهل أنه عاش أكثر من ثلاثة قرون . وهذا غير معقول ولكننا إذا افترضنا أنه عاش على التقريب قرناً واحداً وثلاثين عاماً ، فإن ذلك يوصلنا إلى بداية القرن السادس الميلادى .

ومن ذلك أيضاً ما خلفه كتاب اليونان والرومان عن أرض اليمن التى أسموها « بلاد العرب السعيدة » ، نظراً

لرخائها ووفرة مائها واخضرار مناظرها الطبيعية ، وهو ما لا يزال صحيحاً ، ولكنه لا ينطبق إلا على المناطق العليا والغربية من اليمن ، أما شرقي اليمن الذي زاره استرابون مثلاً فى عام ٢٠ الميلادى ، فلا يكاد ينطبق عليه ذلك الوصف إلا انطباقاً جزئياً بعيداً .

ولعل أطرف ما جاء فى كتابات القدماء ، ما ذكروه عن بلاد حضرموت وواديها فى شرقي اليمن ، فهم يتحدثون عن ذلك الوادى على أنه مزرعة التوابل ونباتات البخور ، التى تصدر من هناك إلى موانئ اليمن ، ثم إلى أسواق الشرق الأدنى وبلاد الرومان ، وبعض هذه التوابل ومواد البخور لا تنبت الآن إلا فى الجهات الموسمية أو فى شرق أفريقية ، حيث الأمطار أغزر بكثير منها فى حضرموت . ومع أن من المسلم به أن بعض التوابل كان يؤتى بها فى الأصل من بلاد الهند إلى بلاد حضرموت ، ثم يعاد تصديرها إلى بلاد الرومان . فإن ما لاشك فيه أن حضرموت كانت تنتج بعض تلك المواد . فى حين أن أحوالها المناخية

فى الوقت الحاضر لا تسمح بإنبات شىء من ذلك .

كذلك يتحدث بعض كتاب اليونان والرومان عن حضرموت ، على أنها بلد غير صحى المناخ ، نظراً لأن حرارته الشديدة تصطبب بالرطوبة الشديدة ، بل إنهم يؤكدون أن حقول التوابل والبخور لا يشتغل بها غير العبيد المسخرين الذين يموتون جماعات جماعات . وقد يكون هذا سر ما تخلف فيها بعد فى العربية من اسم وادى «حضرموت» الذى يفسره بعض الباحثين ، على أنه مركب من لفظى «حضر» و «الموت» نظراً لعدم صلاحية مناخ الإقليم من الناحية الصحية . وعلى كل حال فسواء أكان هذا التفسير صحيحاً أم غير صحيح ، فإن وادى حضرموت فى الوقت الحاضر يمثل وادياً جافاً ، يعتبر من أصح وديان الجزيرة العربية ، وإن كانت واحاته لا تزرع غير النخيل وبعض الحبوب . وهذه صورة تختلف تماماً عما خلفه لنا كتاب اليونان والرومان .

نخرج من هذا الحديث ، بأن توسع العرب ليس ظاهرة تاريخية بسيطة يمكن نسبتها نسبة كاملة إلى ظهور الإسلام ، وإنما ترجع أسبابها الأولية إلى عصر ما قبل الإسلام ، وتتصل بأمور طبيعية في مناخ الجزيرة وأحوالها الجغرافية العامة. على أن ذلك التوسع قد تأثر فيما بعد ببعض العوامل البشرية ، كالضعف

السياسي الذي اعتري إمبراطوريات الشمال ، ومهد لسيادة العرب ، وكظهور الإسلام ذاته وتهذيبه لحركة التوسع ، بأن جعل للعرب المنتشرين رسالة يحملونها إلى العالم الخارجي بدلاً من أن يكونوا مجرد فاتحين ... إلى غير ذلك من العوامل البشرية التي سننتقل إليها الآن .

علاقة الانتشار بالعوامل التاريخية والدينية

قبل ظهور الإسلام وهم يتشاحنون فيما بينهم ، وتدور بينهم الحروب والأيام ، ويهاجرون وينتقلون من مكان إلى آخر في داخل حدود الجزيرة ، ولم يأت توسعهم إلى خارج تلك الحدود إلا مع ظهور الإسلام . ومع ذلك فلم يكن ظهور الإسلام العامل الوحيد الذي أضاف إلى العوامل الطبيعية التي استعرضناها من قبل ، أو الذي أبرز قيمتها وكشف عن مفعولها ، وإنما كانت هناك عوامل بشرية أخرى ساعد بعضها على التوسع وزاد من حدته ، وإن كان بعضها الآخر قد أدى إلى إرجاء ذلك التوسع وتأخيرته ، مما ترتب عليه انقضاء قرن أو قرنين بين حلول الجفاف وتوسع القبائل إلى ما وراء الجزيرة شرقاً وغرباً . أشرنا من قبل إلى أن قبيلتي تنوخ (وهى فرع من أزد) وقضاعة هاجرتا في القرن الثالث الميلادي من شرقى اليمن إلى جنوبى

تحدثنا من قبل عن توسع العرب والعوامل الطبيعية التي أدت إليه وأثرت فيه ، فذكرنا أنها تتصل بالظروف الجغرافية لشبه الجزيرة عامة ، وبتغيرات المناخ وحلول الجفاف التدريجى فى القرون السابقة لظهور الإسلام بصفة خاصة . وسنتحدث الآن عن العوامل البشرية التي اكتنفت توسع العرب بالبر من شمالى الجزيرة نحو داخلية آسيا وشمال أفريقيا ، وبالبحر من جنوبى الجزيرة نحو شرقى أفريقيا والشرق الأقصى .

ولعل أول ما نلاحظه ، أنه على الرغم من أنه يبدو أن أحوال الجفاف قد حلت تدريجياً منذ القرن الثالث الميلادى حتى بلغت غاية الشدة حوالى عام ٥٠٠ بعد الميلاد ، فإن توسع المسلمين من شبه الجزيرة لم يأت إلا بعد نحو قرن وثلث من ذلك . وقد قضى العرب فترة طويلة

نجد، ثم إلى ساحل الإحساء فحدود العراق الغربية حيث استقرت القبيلة الأولى وكونت دولة اللخمين ، وأهم مدنها الحيرة (على الفرات) ، وانتقلت الثانية إلى شرقي الشام وكونت دولة الفساسنة ومن أهم مدنها بصرة « دمشق » . وقد كان لنشأة هاتين الدولتين العربيتين على حدود كل من إمبراطوريتي الفرس والروم علاقة وثيقة بالحالة السياسية في الشرق الأدنى إذ ذاك ، فسقند أرادت الإمبراطوريتان العظيمتان أن تؤمنا حدودهما من ناحية البدو والصحراء ، فشجعتا على استقرار العرب المهاجرين في دولتين ، تقع إحداهما تحت النفوذ الفارسي وترعى مصالح الفرس من ناحية البادية ، وتقع الأخرى تحت النفوذ الرومي وتحمي مصالح الروم من ناحية البادية أيضاً . وقد وجد البدو في ذلك مخرجاً من شدتهم ، ولا سيما أن الجفاف لم يحل مرة واحدة وإنما جاء تدريجياً ، وفوق ذلك فقد نشأت اتصالات بين هؤلاء الأعراب على جانبي بادية

الشام ، امتد أثرها إلى أراضي الإمبراطوريتين ، فأصبحوا الأعراب بالتدريج رسل التجارة والتبادل بين الإمبراطوريتين وأفادوا من ذلك كثيراً ، وإذا نشأت الطرق التي تعبر البادية ، وتسير عليها القوافل مشرقة ومغربة بالسلع والمتاجر بين الفرس والروم ، وبين الخليج العربي وشرق البحر المتوسط ، وهكذا وجدت العناصر المنتشرة من داخلية الجزيرة ملجأ على حدود الإمبراطوريتين ، حيث استقر بها الترحال ، وأدى ذلك إلى انفراج الأزمة التي ترتبت على الجفاف ، واشتغل العرب في شمال الجزيرة بالنقل والتجارة إلى جانب اشتغالهم بالرعى الذي لم يعد يكفي لسد أودهم . وكان من نتائج ذلك كله أن تأجلت حاجة العرب إلى التوسع والفتح والانتشار .

كذلك كان لاضمحلال طريق الملاحة في البحر الأحمر في أواخر عهد الروم (القرن الخامس الميلادي وما بعده) أثره في ظهور طريق البر الحجازي ، وهو

طريق رحلة الشتاء والصيف بين اليمن والشام ، واستطاعت قوافل الجمال فى هذا الطريق الذى يصل الجنوب بالشمال أن تحل محل تجارة البحر بين عدن القديمة وخليجى السويس والعقبة ، وقد أفاد عرب الحجاز لاسيما قريش من هذا التحول من تجارة البحر إلى تجارة البر ، بل كان ذلك أحد العوامل ، فى ازدياد أهمية مكة ، وغيرها من محطات القوافل على الطريق . وقد انصرفت جهود الأعراب والبدو فى هذا الإقليم (عندما ازداد الجفاف وقل الكلاً والمرعى)، إلى الاستقرار فى الواحات ومحطات القوافل، أو الاشتغال بالتجارة ونقل المتاجر والسلع مما عوض من أثر القحط والجفاف ، وهكذا تأجل حلول الأزمة فى أجزاء مختلفة من الجزيرة ، فلم يضطر الأعراب والبدو إلى الهجرة والتوسع خارج بلادهم إلا بعد ذلك ، أى عندما ضعفت كل من الفرس والروم فى أواخر عهدهم ، وقلت تجارة الإمبراطوريتين ، وانكمشت أسواقهما ، فقل التبادل وضاق مجال الرزق فى التجارة رويدا رويدا ،

بعد أن ضاق قبل ذلك فى الرعى ، فلما ظهر الاسلام فى القرن السابع الميلادى كان عرب البادية على استعداد بل فى حاجة حقيقية إلى التوسع والانتشار طلباً للعيش والحياة .

ولعل من الطريف أن نذكر إلى جانب هذه التحولات والتغيرات فى ميدان التجارة والنقل والوساطة التجارية ، بعض ما حدث من تغيرات وتطورات فى حاجة السياسية فى الشرق الأدنى القديم ، فقد كانت الإمبراطوريتان الفارسية والرومية على كثير من القوة والمنعة فى أول الأمر ، بل لقد استطاعت كل منهما أن تسخر العرب لصالحها ، وأن تستخدمهم فى تأمين حدودها . ولكن تلك المنعة كانت فى طريقها إلى الانقضاء. وقد تشاحن الفرس والروم فيما بينهما قروناً متلاحقة ، بما فتت فى عضد كل منهما ، وأتاح الفرصة فى النهاية لأن يستفيد العرب من ضعف جارتيهما العظيمتين فى الشمال الشرقى والشمال الغربى ، وكان أن اتفقت إحدى فترات الاصطدام العنيف بين

الامبراطوريتين ، وما ترتب عليها من ضعف من الجانبين ، مع ظهور الإسلام ، فجاءت الفرصة مواتية لتوسع العرب السياسى وانتشار الإسلام فى وقت واحد ، ولو أن مثل ذلك الضعف السياسى سبق ظهور الإسلام بقرنين مثلا لتغير وجه التاريخ فى الشرق الأدنى والعالم الإسلامى تغيرا واضحا ، ولما أتيح للدين الجديد أن يستفيد من توسع العرب السياسى على حساب الإمبراطوريتين القديمتين ، على نحو ما حدث فى صدر الإسلام .

وثمة أمر آخر قد يبدو تافها فى أول الأمر ، ولكن له أهميته من الناحية العسكرية البحتة . فقد كان العرب الأقدمون ، أو بعبارة أصح ، كان الساميون الذين يفضلون داخلية الجزيرة لا يعرفون فى أول الأمر من حيوانات الركوب غير الجمال وبعض الحمير ، والجمال كما نعرف حيوان بطئ الحركة (فيما عدا فصيلة الهجين) يصلح لحمل المتاجر ونقل السلع على طول طرق القوافل أكثر مما يصلح للغزو والفتح

السريع ، ومع أن بعض الساميين فى أقصى الشمال قد عرفوا الحصان منذ أيام الهكسوس (القرن الثامن عشر ق.م)، ومع أن الحصان ازدادت أهميته فى مملكة سليمان حوالى عام ١٠٠٠ قبل الميلاد ، فإن المرجح جدا أن فصيلة الحصان العربى الضامر الذى يعيش فى داخلية الصحراء ، ويتحمل الجفاف وقلة الزاد ، لم تظهر إلا فى القرون الأولى من العهد المسيحى . والحصان بطبيعته حيوان يعيش فى مناطق السهوب (الاستبس) ذات المراعى القصيرة ، وموطنه الأصلى فى داخلية آسيا ، وانتشر من هناك إلى الشرق الأدنى ، ولكن استخدامه اقتصر فيما يبدو على أراضى الهلال الخصيب وبعضها ببادية الشام فى أول الأمر ، ولم يتأقلم ذلك الحيوان ولم يعتد البيئة الصحراوية الجافة إلا بعد أجيال عديدة من التربية والتوالد والاختيار ، حتى ظهرت الفصيلة العربية المشهورة بالضمور ورشاقة البدن وخفة الحركة . وقد كان لظهور هذه الخيول والحياد العربية فى داخل البيئة

الصحراوية أثره الكبير فى انقلاب نظام الحرب عند العرب، وليس أدل على ازدياد أهميتها من أن بعض أيام العرب قبل الإسلام كانت تعرف بأسماء الجياد كحرب داحس والغبراء ، فلما ظهر الإسلام كان العرب يملكون من رباط الخيل ما أعدهم لهذه الحروب العالمية الجديدة ، وما مكنهم فى النهاية من التوسع فى المشرق والمغرب ، ولو أن العرب اقتصروا على الأبل لما استطاعوا أن يصلوا فى فتوحهم إلى حدود الهند والصين شرقا ، وإلى بلاد المغرب وإسبانيا غربا ، فى مثل الوقت الذى أتموا فيه تلك الفتوحات .

ويعتبر استئناس الحصان واستيلاد الفصيلة العربية منه عاملا بشريا ، لأنه إنما ينسب إلى استغلال الإنسان للبيئة والموارد الحيوانية ، وتوجيهها لإشباع أغراضه . ولذلك رأينا أن نشير إليه فى التحدث عن الناحية العسكرية من توسع العرب .

والآن وقد انتهينا من استعراض العوامل البشرية التى تتصل بالتجارة

وتغيرات أحوالها فى الرواج والكساد ، والسياسة وتقلبات أوضاعها فى القوة والضعف ، والحرب ولها أهميتها ونشاطها عند العرب ، نصل إلى الناحية، وهى لا تقل عن غيرها من هذه النواحي البشرية التى عرضنا لها ، بل كانت فى الواقع أبعد أثرا منها جميعا فى فجر الإسلام ، فقد ألف الدين الجديد بين العرب ووجد بينهم ، وجعل أمامهم رسالة مقدسة يتفانون فى حملها إلى العالم الخارجى . ومن الهم أن نلاحظ أن هذه كانت المرة الأولى التى توسع فيها البدو الأعراب من الصحراء إلى الأراضى المعمورة ومواطن الحضارة القديمة المستقرة فى وقت ظهرت لهم فيه ثقافة خاصة ، تلتف من بداوتهم وتخفف من خشونتهم ، وترفع من تهذيبهم ، وتشيع فيهم روح الكبرياء والاعتداد بالنفس ، إذا يشعرون أنهم إنما جاءوا مبشرين بدين جديد ، حاملين لثقافة جديدة ينسبونهم إلى ثقافات البلاد المفتوحة والامم المغلوبة . والحق أنه كان لظهور الإسلام أثره العظيم والباقي فى توجيه

فتوح العرب توجيهاً إنسانياً يقوم على الأخوة ، ولولا ذلك لأخذت تلك الفتوحات شكلاً آخر ، ولانتهت إلى كثير من التخريب والتدمير ، ولجرت في أعقابها تأخر المدينة ، وانطفاء نور الثقافة ، كما حدث في بعض حركات التوسع السابقة للإسلام . كذلك لولا ظهور الإسلام لما وجد البدو ذلك الوازع القوى إلى الجهاد والتفاني فيه . ولما توافر فيهم ذلك الروح الذي وصل بفتوحهم إلى قلب آسيا . وإلى شواطئ الأطلنطي ، مما ميز توسعهم في العهد الإسلامي عن غيره من حركات التوسع السامية في العهود السابقة ، والتي لم تتجاوز في الحملة ميدان الشرق الأدنى في جنوب غربى آسيا وشمال شرقى أفريقيا .

على أن هناك جوانب أخرى لهذه الناحية الدينية وأثرها في توسع العرب وانتشار الإسلام في الجزيرة وخارجها ،

منها ذلك التشابه بين بعض أصول الفكر الإسلامى ونظائرها في ديانات الشرق الأدنى ، كاليهودية والمسيحية لا سيما بعض الكنائس الشرقية ، فلم يكن عسيرا ولا شاقا على أهل تلك الديانات والكنائس اعتناق الإسلام كذلك كان الكثير من الكنائس المسيحية في حالة ضعف ظاهر، وتشاحن فيما بينها وقد آفاد الإسلام من كل ذلك ، فضلا عن أن فساد الحكم والإدارة ، واختلاف السلطات الدينية في بعض بلدان الشرق الأدنى ، أتاح الفرصة لأن يظهر الإسلام ونظام الحكم والدين فيه بمظهر جذاب ، فدخل الناس في دين الله أفواجا ، ورحبوا بامتداد نفوذ الإسلام ، بل عاون ذلك نشر كلمته وإبلاغ رسالته .

تلك هي العوامل البشرية المختلفة التي أثرت في توسع العرب وانتشار الإسلام .

(٥)

انتشار الإسلام بالبر

سهول الهلال الخصيب ، ثم اتجه شرقا حتى عم هضبة إيران ، ووصل إلى السهل الجنوبي من تركستان الغربية ، ويلاحظ في هذا الدور، أن وجود جبال طوروس وأرمينيا ، التي تتجه سلاسلها من الشرق إلى الغرب ، وتقل فيها الممرات من الجنوب إلى الشمال ، جعل من الصعب على العرب أن يتوسعوا في ذلك الاتجاه نحو أرمينيا وبلاد القوقاز . وبذلك استطاعت أرمينيا أن تحتفظ بمسيحياتها ولم ينتشر الإسلام في بلاد الأناضول إلا على يد الأتراك (والعثمانيين منهم على الخصوص) الذين تقدموا من الشرق إلى الغرب ، أى في اتجاه سلاسل الجبال ، بخلاف العرب الذين كان انتشارهم من الجنوب فاصطدموا بالجبال في شمال الجزيرة ، واضطروا إلى التوسع شرقا في اتجاه إيران ، حيث الممرات السهلة من أراضي العراق نحو تلك الهضبة ، وأراضي قزوين الجنوبية ثم تركستان .

استعرضنا فيما سبق العوامل الطبيعية والبشرية التي أثرت في توسع العرب وانتشار الإسلام . وسنحاول أن نستعرض انتشار العناصر العربية والدين الإسلامى من بلاد العرب بالبر من شمال شبه الجزيرة نحو داخلية آسيا من جهة ، ونحو شمال أفريقية من جهة أخرى .

إذا نحن صرّفنا النظر عن بعض البعثات التي حملت رسالة الإسلام إلى بعض جهات آسيا خارج الجزيرة ، ونظرنا إلى توسع العرب في ذلك الاتجاه على أنه يمثل حركة انتشار عامة ، فإننا نستطيع أن نقسم هذا الانتشار إلى مراحل متتابعة على النحو الآتى :

المرحلة الأولى :

من ظهور الإسلام حتى بداية القرن الثامن الميلادى (أى خلال معظم القرن الأول الهجرى) . وقد انتشر الإسلام في هذه المرحلة من داخلية الجزيرة إلى

المرحلة الثانية :

من بداية القرن الثامن الميلادى حتى نهاية القرن العاشر (أى منذ أواخر القرن الأول الهجرى حتى أواخر القرن الرابع) وقد انتشر الإسلام فى هذه الفترة فى بقية أراضى تركستان الغربية ، وأراضى "ما وراء النهر" بين سيحون وجيحون ، ووصل فى انتشاره إلى حدود تركستان الصينية ، وقد أصبحت تركستان الغربية فى هذه المرحلة قاعدة قوية للإسلام . فانتشر منها فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين إلى مرتفعات زفغانستان ، التى تربطها بتركستان ممرات صالحة . ثم انتشر الإسلام من أفغانستان إلى شمال غرب الهند ، حتى وصل إلى البنغال من جهة ، وإلى بعض جهات الدكن من جهة أخرى ، ولعل من الطريف بهذه المناسبة أن نلاحظ أن انتشار الإسلام برا إلى الهند لم يأت عن طريق إيران مباشرة ، وإنما جاء عن طريق إيران فتركستان ، فأفغانستان ، فالهند ، لأن طبيعة الإقليم فى شرق إيران وما يتاخمها من أراضى بلوخستان

لا تلائم التوسع والانتشار ، ولا طريق التجارة ، وبذلك اضطر العرب والمسلمون فى توسعهم إلى الانحدار أولا إلى تركستان فى شمال إيران ، ثم العودة من هناك جنوبا نحو أفغانستان والهند ، وقد سلك الإسلام فى توسعه نحو الهند الشمالية الغربية الطريق ذاتها التى سلكتها العناصر الآرية القديمة فى توسعها من داخلية آسيا نحو الهند .

المرحلة الثالثة :

من بداية القرن الحادى عشر الميلادى إلى أوائل القرن الثالث عشر (أى خلال القرنين الخامس والسادس للهجرة) وقد انتشر الإسلام فى هذه المرحلة انتشارا بطيئا فى أراضى تركستان الشرقية ، ووحدات حوض تاريم فى قلب آسيا . وبذلك وصل المسلمون إلى حدود الصين الأصلية ، وإن كانت بعض بعثاتهم قد وصلت الصين ، وحملت الإسلام إلى تلك البلاد ، منذ أواسط القرن الثامن الميلادى . وتعتبر هذه المرحلة الثالثة فى الحقيقة فترة انتقال بين المرحلتين الثانية والرابعة .

المرحلة الرابعة :

وقد اتفقت وعصر فتوحات المغول فى أوائل القرن الثالث الميلادى (القرن السابع للهجرة) واستمرت حتى اليوم ، فقد ظهرت قوة المغول فى القسم الشرقى من سهول آسيا الوسطى ومنغوليا ، ثم توسع فرسائهم بسرعة خاطفة ، فاحتلوا الصين من جهة ، ووصلوا إلى جنوب روسيا وداخلية أوروبا الشرقية من جهة أخرى ، كما توسعوا نحو الأراضى الإسلامية فى الشرق الأوسط ، ولم يكن المغول مسلمين فى أول الأمر ، ولكن الإسلام انتشر فى عهدهم انتشارا عظيما ، ومن المفيد أن نذكر بهذه المناسبة أن عصر فتوحات المغول فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ، كان يمثل عصر ضعف سياسى وعسكرى بالنسبة للإسلام والمسلمين فى غرب آسيا ، وأن المغول فى أول الأمر اتفقوا مع المسيحيين ضد المسلمين ، ومع ذلك فقد أفاد الإسلام من تلك الفتوحات المغولية إلى أبعد حد ، وبما لم تفده أية ديانة أخرى فى آسيا ، ومع

أن الإسلام لم ينتشر كثيرا فى بلاد منغوليا ذاتها ، وهى الوطن الأصلى للمغول ، فإنه انتشر فى بعض جهات شمال الصين ومنطقة بكين ، كما نفذ من شمال غرب الصين إلى مقاطعة يونان فى جنوب غرب تلك البلاد . أما فى غرب آسيا فقد انتشر الإسلام من تركستان إلى بعض جهات جنوب شرقى روسيا كما امتد بعد ذلك عندما جاء الأتراك وحلوا فى السلطة محل المغول إلى داخل الأناضول ، ثم شبة جزيرة البلقان على نحو ما هو معروف .

ولعل فى تاريخ انتشار الإسلام فى هذه المرحلة الرابعة ، لاسيما فى عهد فتوح المغول ، بعض ما يدحض الحجة القائلة بأن الإسلام لم ينتشر إلا فى عصور قوته العسكرية ، وأن العرب إنما نشره بحد السيف ، فقد عاصر انتشاره أيام المغول فترة كان فيها الإسلام والمسلمون فى غرب آسيا ضعفاء غاية الضعف من الناحيتين السياسية والعسكرية .

كل هذا عن انتشار الإسلام بالبر

نحو داخلية آسيا، فأما عن انتشاره نحو
أفريقية فقد فتح العرب مصر في وقت
مبكر على يد عمرو بن العاص ، وبذلك
أصبحت لهم قاعدة في شمال شرق تلك
القارة ، انتشروا منها سريعا إلى شمال
أفريقية في بلاد برقة ثم تونس ثم الجزائر
ثم المغرب الأقصى . وهناك اتخذوا
لأنفسهم قاعدة جديدة انتشروا منها علي
يد طارق بن زياد إلى بلاد الأندلس ،
حيث استقر الإسلام فترة قربت علي
سبعة قرون أو ثمانية ثم أضمحل بعد أن
ترك العرب تلك البلاد .

ولكن من المهم أن نلاحظ أنه علي
الرغم من توسع العرب على طول الساحل
الأفريقي الشمالي ، فإن الإسلام لم يحل
سريعا محل الديانات والعقائد القديمة .
ففي مصر مثلا لم يدخل المصريون في
الإسلام دفعة واحدة ، بل بقيت الكنيسة
القبطية قوية حتى انقسمت على نفسها
في القرن الخامس عشر وما بعده ،
وانصرف المصريون عنها وأقبلت أفواج
غالبيتهم الساحقة على الدين الجديد ،
حتى في مصر الوسطى التي بقيت إلى

حين أحد معاقل الكنيسة القبطية ، كذلك
في بلاد برقة ، بقيت الكنيسة المسيحية
قوية حتى القرن الثامن الميلادي ، ولم
تضعف على يد العرب الفاتحين ، وإنما
جاء ضعفها على يد القبائل الصحراوية
المحلية ، التي لم تكن إذ ذاك تعرف
المسيحية ولا الإسلام . وكذلك في بلاد
المغرب الأقصى بقي الإسلام مقصورا في
أول الأمر على العناصر العربية النازحة
إلى تلك البلاد ، وبعض القبائل المحلية
التي اختلطت بها ، أما البربر في الجهات
الجبالية النائية فيبدو أنهم بقوا على
ديانتهم وعقائدهم القديمة بضعة قرون ،
ويعد أن استقر الإسلام في شمال غرب
أفريقية بدأ ينتشر منذ القرنين الحادي
عشر والثاني عشر الميلاديين إلى بلاد
موريتانيا وعلى السواحل الغربية ، حتى
وصل إلى بلاد السنغال في غرب
أفريقية ، ومن هناك عاد فانتشر شرقا
مع سهول السودان الغربي في جنوب
الصحراء الكبرى حتى وصل إلى منطقة
النيجر الأعلى وبحيرة تشاد .

وكما انتشر الإسلام على طول

الساحل الشمالى الأفريقى ، كذلك انتشر من مصر مع وادى النيل نحو الجنوب ، وإن كان الانتشار فى هذا الاتجاه جاء متأخرا بعض الشيء ، فلم تتوسع القبائل العربية التى وصلت فى موجات متلاحقة عن طريق شبه جزيرة سيناء مع وادى النيل نحو الجنوب توسعا ملحوظا إلا بعد القرن الثانى عشر الميلادى .. ثم اشتدت موجات التوسع والانتشار فى القرن الرابع عشر ، عندما انتشر الإسلام فى السودان الشمالى ثم امتد بعد ذلك إلى بلاد الفتح فى جنوب أرض الجزيرة من جهة ، وإلى بلاد كردفان ودارفور ووادى وتشاد فى الغرب من جهة أخرى ، وهناك التقت موجة الإسلام الآتية من السودان الشرقى والمتجهة نحو الغرب من موجة الإسلام التى أشرنا إليها والتى أتت من بلاد السنغال والسودان الغربى واتجهت نحو الشرق .

وهكذا أتى الانتشار الأساسى للإسلام إلى السودان الشرقى عن طريق مصر ووادى النيل ، ولم يأت مباشرة من الحجاز عبر البحر الأحمر إلى السودان

إلا بقدر محدود ، وهذا فى حد ذاته يبرز من قيمة الارتباط الثقافى بين مصر والسودان . ولكن على الرغم من انتشار الإسلام فى وادى النيل نحو الجنوب ، فإنه لم يحل محل العقائد الدينية السابقة مرة واحدة ، ففى بلاد النوبة العليا ، حيث انتشرت المسيحية من مصر أيضا ، واستقرت على ضفاف النيل فى دنقلا وبلاد مروى بقيت تلك الديانة قائمة هناك حتى القرن الخامس الميلادى عندما بدأ الإسلام يحل محلها بالتدريج .

من كل ما تقدم يتبين أن الإسلام عندما انتشر من شمال شبه جزيرة العرب نحو داخلية آسيا من جهة وشمال أفريقيا من جهة أخرى إنما انتشر فى مراحل وأدوار استغرقت أكثر من سبعة قرون فيما يتصل بآسيا ، وأكثر من ثمانية أو تسعة قرون فيما يتصل بأفريقية ، ومعنى ذلك أن انتشار الإسلام لم يأت دفعة واحدة ، كما يبدو لأول وهلة ، وكما أنه لم يساير توسع السلطة العسكرية والسياسة للعرب فى كل

الأحوال ، وقد رأينا أن انتشاره في داخلية آسيا قد عاصر فترة ضعف عسكري وسياسي ظاهر بالنسبة لدول الإسلام في غرب تلك القارة . وهذا في حد ذاته يتعارض مع الرأي القائل بأن الإسلام إنما انتشر بحد السيف ، والحق أن السيف وسع سلطة العرب وأن الإسلام قد أفاد من ذلك بعض الشيء ، أو شيئاً كثيراً في بعض الحالات ، ولكن انتشار هذه الديانة بصفة عامة ما بين شمال الصين وغربي أفريقية والسودان إنما جاء كحركة بطيئة امتد فيها الإسلام مع التوسع السياسي حيناً ، وعن طريق

التجارة والتبشير والاتصال الثقافي حيناً ، أو بواسطة الهجرة والاختلاط بين قبيلة وقبيلة أخرى حيناً آخر ، لا سيما في البلاد التي كان أهلها يشتغلون بالرعي ويعيشون عيشة ناسبتها تقاليد أهل هذا الدين ونظمتهم الاجتماعية غير المعقدة .

على أن هذا ليس معناه أن الإسلام إنما جاء ليناسب بيئات الرعاة ليس غير ، فقد انتشر في بيئات زراعية بحتة ، بل إنه انتشر في بيئات بحرية لا علاقة لها إطلاقاً ببيئة الرعاة التي بدأ فيها الإسلام .

انتشار الإسلام بالبحر

يعتبر العرب فى نظر غالبية الباحثين المؤرخين ، أمة برية بدأت حياتها فى الصحراء ، وأنشأت حضارتها فى بيئات برية داخلية ، لا اتصال لها بالبحر إلا فيما قضت به الضرورة القصوى . بل إن النظرة العامة نحو العرب تصورهم على أنهم بدو رحل ، يرعون الإبل والأغنام ، وينقلون المتاجر على ظهور جمالهم ، سالكين طرق القوافل المعروفة فى بلادهم أو فى خارجها . على أن هذه الصورة إنما هى صورة جزئية لا تمثل الحقيقة كاملة . فالعرب قوم بحريون كما هم قوم بريون ، يسلكون البحار ويتنقلون بين المرافئ ، والموانئ ، كما يجوبون الصحراء ويتنقلون بين الواحات والأسواق ، بل قد يكون انتشار الثقافة العربية والإسلام بالبحر أكثر طرافة بالنسبة للباحث المدقق من انتشارهم بالبر على نحو يعرفه الجميع .

وقد كان طبيعياً أن يصبح للنشاط

العربى جانباً بحرياً منذ البداية كما أن له جانباً برياً ، فجزيرة العرب تقع بين بحار الشمال وبلدانها المعتدلة من جهة ، وبين بحار الجنوب وبلدانها الحارة والموسمية من جهة أخرى ، وإلى الغرب منها يمتد البحر الأحمر كذراع من الماء تكاد تصل ما بين المحيط الهندى وبحر العرب جنوباً والبحر المتوسط شمالاً ، كما أن إلى الشرق منها يوجد الخليج العربى كذراع أخرى تحاول أن تصل ما بين تلك البحار ، والطريف أن عدم اتصال كل من البحر الأحمر والخليج العربى بالبحر المتوسط ، كان سبباً فى نشاط العرب فى العمل والاشتغال بالوساطة التجارية والنقل ، ليتم الاتصال بين الجنوب والشمال ، فنشأت المرافئ ، حول سواحل الجزيرة ، وامتد نشاط العرب ليس فقط على طول طرق القوافل عبر الجزيرة ، وإنما كذلك فى البحار مبتدئين من نهايات تلك الطرق على

السواحل ، أى من قواعدهم البحرية فى الجنوب وفى الشمال .

وهناك ثلاث مناطق أساسية كانت كل منها قاعدة لتوسع العرب واشتغالهم بالنقل والتجارة البحرية ، كما انتشر الإسلام من كل منها إلى ما وراء البحار، ولو بدرجات متفاوتة .

أما المنطقة الأولى ففى الشمال ، على سواحل فينيقية ، وهى تعادل سواحل لبنان فى الوقت الحاضر ، أو بعبارة أصبح تمتد من حيفا شمالا ، والناظر إلى سواحل الشام المطلة على شرق البحر المتوسط يلحظ الفرق الواضح من الناحية الطبيعية بين سواحل فلسطين وسواحل لبنان . فالأولى رملية منخفضة تكاد تخلو من المرافئ الطبيعية ، فضلا عن أن الرمال والرواسب تتراكم على الساحل مع مرور الزمن ، مما يردم المرافئ ، ويجعل من الصعب الاحتفاظ بالمساكن الشاطئية مفتوحة لسفن الملاحة ... وكثير من موانئ هذا الساحل القديمة مثل غزة وغيرها أصبحت الآن بعيدة عن البحر

المكشوف والمفتوح ، أو على الأقل أصبحت تفصلها عن ذلك البحر الشطوط الرملية التى تعوق الملاحة ، والواقع أن هذا القسم الفلسطينى من سواحل الشام لم يكن ليمثل فى عصور التاريخ المتلاحقة منطقة بحرية متصلة التاريخ والنشاط ، وكلما ظهر فيه ميناء أو مرفأ تضافت العوامل الطبيعية من الإرساب البرى والبحرى على ردمه ، وقد نعجب أن نعلم أن بعض الرواسب التى تتراكم على هذا الساحل ، والتى تعوق الملاحة (ولكنها تكون تربة صالحة للزراعة) تأتى أصلا من مصب نهر النيل ، حيث تطفو مياه ذلك النهر العذبة بما تحمل من ذرات الطين الخفيفة والمكونة من شظايا الميكا الرقيقة المجلوبة أصلا من بلاد الحبشة ... تطفو تلك المياه بحمولتها الخفيفة فوق سطح مياه البحر المالحة ... وتتجه مع التيار شرقا وشمالا بشرق ، حتى تصل إلى سواحل فلسطين وترسب هناك ... ولعل فى ذلك بعض ما يزيد من الرابطة الطبيعية بين وادى النيل الأسفل وهذا القسم من سواحل الجزيرة العربية .

أما سواحل لبنان فتقع عند سفوح جبال لبنان العالية ، فهي سواحل صخرية فى كثير من أجزائها ويوجد بها عدد كبير من المرافئ الطبيعية التى استخدمت فى العصور القديمة ، مثل صور وصيدا ، والتى لا تزال تستعمل فى الوقت الحاضر مثل بيروت . ولما كانت عوامل الإرساب فى هذا الساحل أقل كثيراً منها فى ساحل فلسطين فقد احتفظ هذا الساحل اللبناني بموانئه ومرافئه ، وقد مثل منذ أقدم العصور المدخل البحرى للشرق الأدنى ، فضلا عن أن سكانه اشتغلوا بالملاحة والتجارة البحرية منذ القدم ، وكان لهم ضلع كبير فى نشر الثقافة من بلادهم وما وراءها فى البر إلى كثير من بلدان البحر المتوسط وما وراءها . ويكفى أن نذكر مثالا واحدا من العصور القديمة هو توسع الفينيقيين من هناك نحو شمال أفريقيا والحوض العربى للبحر المتوسط ، وأن نذكر مثالا آخر من العصر الحديث هو توسع اللبنانيين إلى بلاد المهجر فى أمريكا ... واللبنانيون هم خلفاء

الفينيقيين ، ورثوا عنهم حب المخاطرة والهجرة البعيدة ... وهم الآن يرفعون علم الثقافة العربية فى كثير من بلاد المهجر النائية .

وأما المنطقة البحرية الثانية ، التى توسع العرب منها وانتشرت بذلك الثقافة العربية الإسلامية ، فتقع على سواحل الخليج العربى وخليج عمان . وهى أيضا تنقسم بدورها قسمين . فأما الأول فساحل الإحساء والبحرين ، وأما الثانى فساحل عمان . والقسم الأول سهل رملى تقل فيه المرافئ الطبيعية فيما عدا الكويت فى أقصى الشمال (وهو ميناء حديث نسبيا) ، والبحرين وما يقابلها من السواحل فى أقصى الجنوب . وقد ارتبطت حياة سكان هذا الساحل منذ أقدم العصور بالبحر ، ولكن نشاطهم اتخذ اتجاها معينا ، فهم قد اشتغلوا بصيد اللؤلؤ والاتجار فيه ، وقد مونوا ببضاعتهم الثمينة أسواق الشرق وبعض أسواق الغرب القريب فى البحر المتوسط ، واستطاع تجارهم فى بعض رحلاتهم نحو الشرق أن يحملوا معهم ثقافة

العرب ، وأن يبشروا بدينهم ولو بقدر محدود نسبيا . وأما القسم الثانى الذى يشمل سواحل عمان ، فإنه يحاذى الجبال الداخلية المرتفعة ، وتوجد به بعض المرافئ الطبيعية الصالحة ، وأهمها مسقط ، كما أن أهله اشتغلوا بالنقل والتجارة البحرية منذ القدم ، واختلط نشاطهم أحيانا بنشاط أهل السواحل المقابلة لاسيما أهل هرمز وجزيرتها . وامتد نشاط العمانيين فى بحار الهند وجنوب آسيا ، ولكن أغلب ذلك النشاط اتجه نحو شرق أفريقية وجزيرة زنجبار (زنجبار) التى ارتبطت بسلطنة عمان بأوثق الصلات . وقد حمل العمانيون الثقافة العربية الإسلامية ونشروها على طول ساحل أفريقية جنوبا حتى خليج سفالا ، كما أنهم توغلوا فى بعض الجهات نحو داخلية شرقى أفريقية ولو فى نطاق ضيق .

وأخيرا نصل إلى المنطقة البحرية الثالثة ، التى انتشر العرب منها ونقلوا ثقافتهم ودينهم إلى ما وراء البحار ، وهى منطقة اليمن وحضرموت فى جنوب غربى

شبه الجزيرة . وقد رأينا من قبل أن هذه المنطقة لها مكانتها فى تاريخ العرب وحضارتهم ، فقد نشأت بها حضارات عريقة قبل الإسلام ، وكان لأهلها اتصال قوى بسكان السواحل الأفريقية المقابلة ، والتى كانت تعرف هى وبلاد اليمن معا باسم بلاد "بنت" التى اتصلت بمصر القديمة بواسطة التجارة البحرية . وقد استمر عرب الجنوب فى نشاطهم التجارى خلال العهد المعينى والسبئى والحميرى ، كما أصبحت بلادهم لاسيما اليمن معقلا الزن من الثقافة التى لحقت بالخارج ، وانتشر الساميون من الجانبين من هناك إلى بلاد الحبشة وهضبة أفريقية الشرقية ، حتى إذا ما جاء الإسلام استمر أهل اليمن فى نشاطهم التجارى البحرى ، لا سيما من بعض الموانى ، كعدن والمخا ، ولو أن أغلب النشاط البحرى جاء من بلاد حضرموت ، وعلى يد الحضارمة الذين يعتبرون بحق "فينيقيى البحار الجنوبية" ، فقد كانوا رسل الثقافة العربية والدين الإسلامى إلى ما وراء بحر العرب وبحار الهند حتى

جنوب شرقى آسيا ، حيث استقروا فى بلاد الملايو وجزر الهند الشرقية (إندونيسيا) ، ونشروا الدين الإسلامى بين سكان البلاد الأصليين ، لا سيما فى بعض أجزاء الملايو وفى جزيرة جاوه وسومطرة وبعض جزر الفلبين .

وترجع بداية وصول العرب إلى جنوب شرقى آسيا وجزرها إلى القرن العاشر الميلادى ، ولو أن بعض تجارهم استقر قبل ذلك بقرنين أو ثلاثة فى بعض موانئ الصين الجنوبية مثل كانتون وغيرها . واستمر اتصال العرب بجنوب شرقى آسيا منذ ذلك الوقت ، ولو أن مبلغ نشاطهم فى الاشتغال بالتجارة والتبشير بالدين الإسلامى قد اختلف من وقت لآخر ، ومن لحظة لأخرى ، فهم فى موانئ الصين ذاتها كانوا يعيشون فى «مستعمرات» أو «أحياء» خاصة بهم ، زار بعضها ابن بطوطة فى القرن الرابع عشر ، وتحدث عن ثروة أفرادها وما كانوا يتمتعون به من حقوق و«امتيازات» أما فى جزر الهند الشرقية فقد كثر

إختلاطهم بالأهالى وبذلك انتشر الدين الإسلامى بين السكان الأصليين .

وعندما وصل الغربيون لاسيما أهل أوروبا الشمالية الغربية « من هولنديين وإنجليز » إلى جنوب شرقى آسيا نشط العرب من جديد على عكس ما نتصور ، إذ كان لهم دور الوساطة التجارية بين الأهالى الوطنيين وبين الأوربيين ، ولا يزال نشاط الحضارمة ملحوظاً فى تلك البلاد ، وهؤلاء الحضارمة فى إندونيسيا والملايو وسنغافورة يعتبرون مفخرة للعرب والثقافة العربية والإسلامية فى بحار الشرق البعيد .

من كل هذا يتبين أن العرب لم يكونوا فى تاريخهم الطويل أمة برية فقط ، وإنما هم كذلك أمة بحرية ، انتشر ملاحوها ، وحملوا معهم ثقافتهم إلى ما وراء البحار . والذى يطلع على كتابات العرب القديمة وكتابات بعض الأمم الأخرى لاسيما أهل الصين ، يتبين له كيف أن العرب كانوا من أمهر الملاحين وكيف أنه كان لهم الفضل فى استخدام البوصلة البحرية لأول مرة حوالى القرن

الثانى عشر الميلادى ، بعد أن كان استخدام الإبرة المغناطيسية مقصوراً على تعيين الاتجاهات على البر فى الصين . كما أن هؤلاء العرب كانوا مهرة ممتازين فى فن بناء السفن وقيادتها ، فى بحار عرفت بكثرة زوابعها وهياج أمواجها ، وشدة أخطارها لا سيما فى فترات هبوب الرياح الموسمية على بحار الهند وآسيا الجنوبية .

تلك قصة توسع العرب وقصة انتشار الإسلام ، حاولنا أن نتابعها بإيجاز شديد فبدأنا باستعراض العوامل الطبيعية وما كان لها من تأثير أساسى ، ثم العوامل البشرية وما كان لها من أثر

متمم للعوامل الطبيعية ، ثم انتقلنا بعد ذلك إلى استعراض مراحل التوسع ، مرحلة مرحلة ، بالبر والبحر . وإنا نرجو أن نكون قد خرجنا من هذا العرض السريع بأن حركة توسع العرب ونشر ثقافتهم كانت حركة عظيمة هائلة ، إمتدت من شرقى آسيا إلى غربى إفريقيا وانتشرت فوق اليابس كما انتشرت فوق البحار . وكلما تعمق الباحث فى دراسة أدوار تلك الحركة ومراحلها ، ازدادت له روعتها جلاء ، وتكشفت له دراساته عن بعض نواحي العظمة الخالدة فى هذا الشعب العربى ، والدور الذى قام به أبنائه فى تاريخ الإنسانية جمعاء .

سليمان حزين
عضو المجمع